خلفية اهتمام الاستشراق الفرنسي بالأمثال الشعبية الجزائرية

بخالد فتيحة– جامعة تلمسان

Bekaled.f@yahoo.fr

الملخص

الكلمات المفتاحية: خلفية/ اهتمام/ الاستشراق الفرنسي/ الأمثال/ الشعبية الجزائرية

يكاد تكون الأمثال من بين الأنواع الأدبية الأكثر تميزا، ذلك أن لها جذور تنطلق منها و لها مواقف تعبّر عنها ، و لها صورتها التي تفردها عن غيرها من الأعمال الإبداعية. بل و أسلوبها الموجز الذيتبدو فيه و لها بعد كل ذلك لغتها التي تسترسل بها و لا يمكن أن ننسى أبعادها الدلالية التي ترمي إليها في حياة الأمم و الشعوب و الأفراد و تتعدد تلك الدلالات بين دلالة اجتماعية و دلالة نفسية و سياسية و غيرها.

والأمثال بصفة عامة جزء من حياة الأمم والشعوب تستلهم التاريخ وتتضمن الموروث وتعبر عن الفكر والثقافة، ولذلك نجد أن دراسة الأمثال عنصر مهم في الدراسات الأدبية والدراسات الأنثربولوجية.

ونحاول في هذا المقال تتبّع اهتمام المستشرقين الفرنسيين بالأمثال الشعبية الجزائرية جمعاً ودراسةً مع توضيح خلفية ذلك.

Abstract :

"Background Interest of French Orientalists in Algerian Popular Proverbs"

Key words : background – interest - French Orientalism – proverbs – Algerian popular

Proverbs seem to be among the most distinguished literary genres, since they have roots from which they kick off, positions which express them, and images which isolate them from the other creative works. In addition to this, proverbs have their restricted style where they set, their language, semantic dimensions that are aimed to the life of nations, people, and individuals, these connotations vary between social, psychological, political semantic, and so on.

Proverbs, in general, are part of the life of nations and people, they are inspired by history, they contain the inherent, and express thought and culture, as a consequence, the study of proverbs is an important element in anthropological and literary studies.

We try, in this paper to follow the interest of French orientalists in Algerian popular proverbs by collecting and studying them, in addition to explaining the background of that.

Résumé:

Il est possible de classer les proverbs parmi les genres littéraires les plus connus, leursracines, leursthématiques, et leurs images; leurs conferment unevaleurartistique.

En plus de leur style simple de leur langue facile s'ajoutentleurretombéessymboliquessociales, psychologiques,qui influent sur le quotidian des nations et des peuples et des individus.

Les proverbs son tune partieintégrante de la vie des nations et des peuples, ilsquestionnentl'histoire, renferment le patrimoine, ils experiment unepensée, une culture d'ouleur insert des l'éventail des etudes littéraires et anthropologiques, est plus nécessaire.

Danscet article, nous tenterons de suivre les orientalists françaisqui se preoccupant des proverbs populairesalgériens

Mots clés: Intéret- orientalismefrançais-proverbes/ populaires - algériens

أولا- في منزلة الأمثال الشعبية

الأمثال الشعبية شكل من أشكال التعبير و جنس من الأجناس الأدبية بل هي من أجل الكلام و أشرفه يتصرف في أكثر وجوه الكلام و يدخل في جل أساليب القول[1]،والحقيقة أن ذلك راجع لخصائص المثل ذاته ففكرته واقعية ولفظه موجز وتركيبه بسيط وتداوله سهل مما يجعله عالقاً بالأذهان منساباً على كل لسان.

قال إبراهيم النظام: <<يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة>>[2]،وقال ابن عبدربه الأندلسي في "العقد الفريد": <<الأمثال هي وشي الكلام و جوهر اللفظ و حلي المعاني و هي التي تخيرتها العرب و قدمتها العجم و نطق بها كل زمان و على كل لسان فهي أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة و لم يسر شيء مسيرها و لا عم عمومها حتى قيل أسير من مثل >>[3].

والأمثال بصفة عامة جزء من حياة الأمم والشعوب تستلهم التاريخ وتتضمن الموروث وتعبر عن الفكر والثقافة، ولذلك نجد أن دراسة الأمثال عنصر مهم في الدراسات الأدبية والدراسات الإثنولوجية يقول أحمد أمين <<... و مزية الأمثال أنها تنبع من كل طبقات الشعب ... و أمثال كل أمة مصدر هام جدا للمؤرخ الأخلاقي و الاجتماعي يستطيع كل منهما أن يعرف كثيرا من أخلاق الأمة و عاداتها و عقليتها و نظرتها إلى الحياة لأن الأمثال عادة وليدة البيئة التي نشأت منها>>[4]، أما بوتارن فيقول عنها في مقدمة كتابه (الأمثال الشعبية الجزائرية):<< هي كنز ثقافي ذو قيمة كبيرة تتراءى فيها

الملامح الخاصة بكل قوم، و ذلك لأنها وليدة لظروف معينة، و بالتالي وليدة التاريخ و الجغرافية و المناخ و التربية ...و هي تحتوي على نمط من الأخلاق و على فلسفة بل على فن الحياة، فإنها تعبر عما تكنه الشعوب في أعماق أنفسهم، و لذلك يكاد يعرف قائلوها من بين هذه الشعوب بمجرد الاطلاع على مضمونها و أسلوبها و طريقة التفكير فيها>>[5].

وقد ألف أسلافنا فيها المصنفات ككتاب (مجمع الأمثال) للميداني و (جمهرة الأمثال) لأبي هلال العسكري، ثم ظهر بعد ذلك نمط جديد من الأمثال نتيجة لاختلاط العرب بالأمم الأخرى وتداخل الثقافات أطلق عليها الأمثال المولدة منها ما صنفهالخوارزمي في كتابه (الأمثال) وغيره.

وأما في العصر الحديث فقد جاءت الأمثال الشعبية ممثلة لصوت الشعب الذي يدل على أحواله ووسيلة تعبيره التي تدل على تفكيره، ولذا فقدكان لها شأن عظيم في الدراسات التي تتناول أحوال الشعوب وثقافتها بخاصة، كما أن لها شأنا في الدراسات الاجتماعية والتاريخية واللغوية، يقول رابح خدوسي:<<هي صورة واضحة عن تاريخ من العطاء البشري، و عن حياة أجيال و أجيال مليئة بالتجارب و الخبرات بالأفراح و الأقراحو أساليب الحياة المرتبطة بهما، و هي أيضا سجل يتضمن منظومة فكرية تحتوي على مجموعة قيم اجتماعية؛ تربوية؛ أخلاقية و سياسية...إلخ؛ تفيد الباحثين و الدارسين في استكشاف الماضي قصد استشاره في الحاضر و المستقبل>>[6].

والأمثال الشعبية بصفتها جزءاً من الأدب الشعبي نجدها مؤثرة في غيرها من الأجزاء الأخرى فالشاعر يضمنها في شعره والحكواتي يستخدمها في حكاياته و الروائي يضمنها في رواياته ... من هنا اهتم بها الباحثون في الأدب الشعبي إما بالجمع أو الدراسة وألفوا فيها المؤلفات ومن أبرز هؤلاء عندنا في الجزائر ابن شنب و عبد الحميد بن هدوقة و رابح خدوسي و عبد المالك مرتاض فضلا عن الدراسات الأكاديمية التي اهتمت بالجمع والدراسة[7].

وليس بغريب أن يجمع أبناء الشعب أمثاله ولكن ما يلفت النظر هو اهتمام المستشرقين بالأمثال الشعبية فيالعالم العربي عامة و الجزائر خاصة وجمعها في مؤلفات خاصة قبل أن يدرك أبناء العرب أهميتها بسنوات طويلة.

و لماكانت الثقافة الشعبية الجزائرية تزخر بعطاء عميم و ثراء عظيم من الأمثال و التي عرفت امتدادا واسعا منذ القدم، و قد تداولها الناس بصفة ملفتة للانتباه باعتبارها شكلا من أشكال التعبير الشعبي و ارتباطها ارتباطا وطيدا بالحياة المعيشة و التصاقها التصاقا وثيقا بمختلف التغيرات و التقلبات المجتمعية،فبذلك شكلت الأمثال الشعبية الجزائرية محور دراسات متنوعة و اهتمامات عديدة من الباحثين سواء الجزائريين أو الأجانب الذين عكفوا على جمعها و دراستها.

من الذين أبدوا اهتماماتهم و صبوا انشغالاتهم على دراسة الأمثال الشعبية الجزائرية من الأجانب الفرنسيون بحكم الروابط التاريخية بين البلدين و ترجع بوادر الاهتمام بالمواد الثقافية الشعبية في الجزائر في العصر الحديث إلى طلائع الاحتلال الفرنسي فيالربع الثاني من القرن التاسع عشر[8] .

وكانت الغاية من هذه الدراسات والبحوث تدخل ضمن الاستراتيجيات العامة للحركة الاستعمارية في تلك الفترة من تاريخ الجزائر، لأن من بين أهدافهذه الأعمال العلمية، كان السعي وراء معرفة الحياة الشعبية من خلال منتوجها الثقافي/المعرفي

ذي الصبغة الشعبية، وقد اتخذته السلطات العسكرية الفرنسية رصيدا معرفيا يساعدها في توجيه السكان للتكيف مع نظمها، فكانت الثقافة الشعبية هي الرصيدالمعرفي المعتمد في الاستكشاف العلمي للمجتمع الجزائري[9]،فمؤلفات هؤلاء تعطي انطباعاً عن أهمية المثل في الدراسات الاستشراقية بصفة عامة .

ونجدد القول أنه يكاد يكون المثل من بين الأنواع الأدبية الأكثر تميزا. فللمثل جذور ينطلق منها و له مواقف يعبّر عنها ، و له صورته التي تفرده عن غيره من الأعمال الإبداعية بل و أسلوبه الموجز الذي يبدوا فيه و له بعد كل ذلك لغته التي يسترسل بها و لا يمكن أن ننسى أبعاده الدلالية التي يرمي إليها في حياة الأمم و الشعوب و الأفراد و تتعدد تلك الدلالات بين دلالة اجتماعية و دلالة نفسية أو سياسية أو غيرها .

ولقد اهتم عدد من الباحثين بتعريف المثل تعريفا علميا ، من ذلك ما ذهب إليه الأستاذ أحمد أمين من<<أن الأمثال نوع من أنواع الأدب يمتاز بإيجاز اللفظ و حسن المعنى و لطف التشبيه و جودة الكناية و لا تكاد تخلو منه أمة من الأمم>>[10]، أما الأستاذ أحمد رشدي صالح فذهب إلى أن << المثل هو هذا الأسلوب البلاغي القصير الرائع الرواية الشفهية المبين لقواعد الذوق أو السلوك أو الرأي الشعبي ، و لا ضرورة لأن تكون عباراته تامة التراكيب بحيث يمكن أن يطوي في رحابه التشبيهات و الاستعارات و الكنايات التقليدية>>[11]

و قبل الخوض في تفاصيل هذا اللون الأدبي و موقف المستشرقين منه لا بأس أن نقف عند جذور هذا الفن الأدبي هذه الجذور التي تَهَبُ المثل أكثر الخصائص و هي التي تميزه عن باقي الأعمال الإبداعية . و ذلك كون المثل<< ينشأ فكرة في الذهن يعبِّر عنها بعد ذلك منشئ أو أديب . و لا يكون تأملا من التأمل الطويل يستغرق فيه صاحبه ثم يصوغه على هذا النحو أو ذاك . و لا ينتهي إليه قائله و هو يريد أن يركز فيه انطباعاته و ارتساما ته لأنه حين يكون كذلك . أي حين يكون أثرا للتأمل أو نتيجة للتفكير أو تعبيرا مقصودا عن انطباع فهو أقرب إلى أن يكون حكمة و بين الحكمة و المثل وجوه من افتراق ووجوه من تلاق >>[12] .

فالمثل مهما كانت لغته ينطلق من حادثة جرت أو قصّة دارت بين الناس أو حدث وقع في حياة إنسان أو جماعة من الناس .. ثم تركّزت الحادثة في قلة من الألفاظ مكونة جملة واسعة الانتشار و الذيوع نسميها المثل . هذا المثل هو الذي يبقى و تتداو له الألسن عبر الأزمنة و العصور في حين تُهمل الحادثة و المضرب و قد تُنسى و ربما تتناقلها الألسن كذلك لكن مع الزيادة فيها أو النقصان تبعا لهوى المحدِّث و عندها << لا يبقى منها إلا الكلمات القليلة التي يحتفظ بها المثل فينشئ الناس لهذا المثل قصة جديدة تتلاءم معه و تنتهي في شيء من التلقائية إليه>>[13] .

و حين نقول أنه لا بد أن يكون وراء كل مثل حادثة فهذا لا يعني أن هذا الأمر حتمي واجب بل ينبثق المثل من مشهد من مشاهد حياة الناس أو لونا من ألوان بيئتها فقد يقف المثل على ساق شجرة أو ريشة طير أو مجرى واد أو صوت حيوان أو ... << و قد تكون – أي الحادثة – مع مظهر الطبيعة مع الليل إذا يغشى أو النهار إذا تجلى أو مع النجم إذا أضاء أو مع القمر إذا بدا أو مع الفجر إذا تنفس و قد تكون مع الشيخ أو الطفل مع الشاب أو مع الفتاة. و قد تكون في شأن

من شؤون الزراعة أو شأن من شؤون البيت أو الصناعة الريفية. و قد تتناول الحياة ، و قد تكون مع المعتقد و قد تشير إلى الحاكم المتسلط . أما المواقف التي يعبر عنها المثل عديدة هي مواقف مرتبطة بالحياة نفسها حياة الناس اليومية على اختلاف ظروفهم و معاشهم سواء كانوا من أغنياء القوم أو فقرائهم علماء أو متعلمين ... فالمثل أكثر ما يكون ملتصقا بحياة الناس و تعبيرا عنها في حياة الحزن و الفرح و الشدّة و الرخاء في إشراقات العدالة و في ظلمات الظلم في السفر و الحضر >>[14].

أما الحُلّة التي يبدو فيها المثل فهي الإيجاز و التركيز في أسلوبه فهو يضغط الحادثة في مجموعة قليلة من الألفاظ فيخرج لنا في جملة قصيرة قد لا يتعدى أحيانا كلمتين أو ثلاث كقولنا " الْحَظَى يَغْلَبْ الْقَضَى " مثل في ثلاث كلمات و كذلك الشأن في قولنا " جا يكحلها أعماها " و تستمر حياة المثل في مثل هذه الكليمات التي تحمل ظلالا واسعة ولذلك ترانا نسبق إليها عند كل حادثة أو قصة مماثلة و ترانا لا نغيِّر من طبيعة الألفاظ بل ننساق إليها كما وردت . و الملاحظ على المثل أنه يأتي بسيطا غير معقد أو متكلف فيه و هو يكتسب قوته من شعبيته ، و على الرغم من قرب المثل من الفهم و بعده عن التكلف فإنه يكتسي أحيانا موسيقى خفيفة تتمثل في السجع . و مثل هذه الأمثال المسجوعة المتوازنة نذكر:

إذا العجوزة بغاتالكنّة ، الشيطان يدخل الجنّة

قْبلْ ما تخطبْ وجِّدْ الماء والحطب

ياصاحبِ كن صبّار ... أصبر على ما جرى لك

أرقد على الشوك عريان ... حتى يطلعنهارك

و لكن هذا لا يعني وجوب السجع في المثل أو أن كل كلام مسجوع يعتبر مثلا، فالصلة بين السجع و المثل ليست ضرورية و لا متلازمة إلا أن الكثير من الأمثال الشعبية تجد كمالها في هذا المحسن اللفظي ، و لعل السجع يعبّر عن شيئين اثنين : " عن الحس الموسيقي لدى الفرد و الجماعة في ميلها إلى مثل هذه الجمل التي تتماثل في نهايتها و قد تتوازن في أجزائها ، و عن الإحساس بحاجة المثل إلى هذه الموسيقى ليسهل انتشاره و ذيوعه . " و حتى يؤدي المثل الغاية المرجوة منه و هي تمرير الرسالة و فهمها من لدن المتلقي – خاصة ونحن نقصد الشعبي من الأمثال – فالأحسن أن يكون بسيطا في تعبيره قريبا من متلقيه بعيدا عن كل صناعة فنية مرهِقة ، و معلوم أن المثل الشعبي كما الفصيح يكتسب ذيوعه و شيوعه من بساطته و قربه من الناس .

وللمثل الشعبي كما للفصيح دلالة غنية كونها تجسد ضمائر الشعوب و تعبّر عن آلامها و آمالها و اهتماماتها و تطلعاتها في على قلة مفرداتها إلا أنها تخفي معان كثيرة " و حين يتعذر علينا معرفة تاريخ شعب من الشعوب يكفينا مدارسة أمثاله الشعبية فإنها تغنينا عن الكثير و تعوضنا الكثير مما لا نعرف عن ذلك الشعب أو تلك الأمة .، فالأمثال الشعبية خاصة هي الكاشفة عن ذاتية الأفراد و الجماعات بل إنها المورد الذي يستقي منه المؤرخ و الباحث في حضارة الشعوب مادته و منها يرصد الخفايا النفسية و الاجتماعية لأمم و الأفراد .

فالمثل الشعبي جدير بالتدوين و ذلك للاعتبارات السابقة و على سلطات الجزائرو باحثينا الاهتمام بهذا الجزء من التراث كما حرصت كل أمة على تدوين أمثالها << ففي الأدب الفرنسي كان الناس يهتمون بحفظ الأمثال قبل العصور الوسطى ثم أخذوا بعد ذلك في حصرها و تسجيلها و نشرها>>[15].

و منذ القرن السابع عشر تطورت فكرة الاهتمام بالأمثال و فرق الفرنسيين بين لونين منها في أدبهم و هي:[16]

- الأمثال الشعبية ProverbesPopulaires
- الأمثال العالمةProverbesSavantes

و الحقيقة التي توصل إليها المستشرق الفرنسي شارل بيلا Charles Pellat أن الأدب العامي في كل أمة أوفر إنتاجا كما هو شأن المثل الشعبي الجزائري إلا أنه المدون منه قليل و ذلك يرجع إلى أن التراث الأدبي كله سواء الرسمي أو العامي كان قبل التدوين يَعْبُرُ الأجيال و العصور عن طريق المشافهة و عندما جاء عصر التدوين تركَّز الاهتمام على الأدب الرسمي المنطوق بالفصحى[17].

و هذا ما حدث للمثل الشعبي الجزائري رغم بعض المحاولات التي قام بها بعض باحثينا على غرار المرحوم محمد بن أبي شنب الذي جمع الكثير من الأمثال العربية المترجمة إلى الفرنسية في كتابه : أمثال عرب الجزائر و المغرب " الذي يعدُّ أقدم مصنف اهتم فيه صاحبه بجمع أكبر قدر من الأمثال الشعبية الجزائرية ،و قد اعتمد محمد بن أبي شنب في جمع مادته على ما خلّفه بعض المستشرقين الفرنسيين من كتب وضعوها من أجل تعليم اللغة العربية الدارجة في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين على غرار الكتب التي تركها كل من فينيلون Fenelon و فلوريونFlorion و غيرهم . إلا أن <<أمرين يحولان بيننا في هذه الأيام و بين الاستفادة من هذا الكتاب أحدهما أنه بالفرنسية و الآخر أنه طبع في أوائل هذا القرن 1905 فأضحى نادرا أو أنه في حكم النادر>>[18].

و يضاف إلى هذا المصنف الجهد الذي قام به عبد الحميد بن هدوقة الذي جمع أكبر قدر ممكن من الأمثال المتداولة في مدينة سطيف و نواحيها ، معتمدا في ذلك على ذاكرته و ما أمده به السكان و قد ركز عبد الحميد على الشرح و التعليق بغرض تقريب المثل من الإدراك . و يحتوي الكتاب على حوالي 640 مثل مصنف و مفهرس و مشروح و معلّق عليه و قد رتّبها ترتيبا أبجديا . و تمكن ابن هدوقة في مصنفه من رد كثير من الأمثال إلى أصلها في التراث العربي الإسلامي و إلى ما يشابهها في الثقافة المغاربية في مناطق أخرى و ذلك بفضل المعلومات الموسعية التي كان يتمتع بها "و لم يكن مصنف بن هدوقة و حده الذي اهتم فيه صاحبه بجمع المثل الشعبي الجزائري بل إن قادة بوتارن جمع في كتاب حوالي 1010 مثل ، و يختلف مصنّف قادة بوتارنعن سابقيه في طريقة تبويبه إذ اعتمد في تصنيف مادة الكتاب على تقسيمه إلى موضوعات فخصص لكل حقل دلالي بابا أورد فيه الأمثال المتداولة من طرف الناس في منطقة الجنوب الغربي ، و حدد هذه الأبواب في ستة أبواب " و الكاتب في مصنّفه هذا يشرح المثل شرحا موجزا و قد حاول في المقدمة تحديد وظائف

المثل و يمكن إجمال أهم الوظائف فيما يلي : الوظيفة التواصلية – الوظيفة الإقناعية–الحجاجية– الوظيفة التنبيهية "إلا أن هذه المحاولات على أهميتها تبقى محدودة غير كافية مقارنة بما يعرف من تأريخ الجزائر الأمازيغي و العربي و الإسلامي عموما و ما حمله هذا التاريخ المتنوع و المتشعب من حوادث لا شك أن العبقرية البلاغية الجزائرية جعلت منها مضارب لأمثال . و تبقى محدودة تلك الجهود كون أغلبها ركز على جغرافيا محددة من هذا الوطن المترامي الأطراف .

و يرجع شارل بيلا Charles Pellat إهمال الأدب العامي في عصر التدوين إلى انتصار العرب سياسيا و عسكريا ، فالأمة المنتصرة تحاول تهذيب لغتها و تجعل منها لغة نبيلة حتى تشيع و تنتصر[19].

و إذا كان ذلك حال و موقف القدماء من الأدب العامي فإن شارل بيلا Charles Pellat يرجع سبب إهمال الأدب الشعبي بما فيه الأمثال الشعبية الجزائرية يقول: << إن نشأة القومية في العصر الحديث أدت إلى إهمال الإنتاج الشعبي و كان من الممكن أن يحدث العكس من ذلك حيث تجد في هذا الإنتاج، يقصد القومية، عناوين مجدها>>[20].

و يتوقع شارل بيلا Charles Pellat أن يستردَّ الأدب العامي بما فيه الأمثال الشعبية الجزائرية اعتباره و ذلك لانتشار الوسائل المساعدة على ذيوع مثل هذا الأدب كالمسرح و السينما و الإذاعة و التلفزيون . بل نضيف إلى هذه الوسائل التي أشار إليها شارل بيلا Charles Pellat وسيلة هامة متمثلة في افتتاح معاهد متخصصة في جمع التراث العامي و كل ما تعلق بالثقافة الشعبية للأمة مثل معهد الثقافة الشعبية بتلمسان– الذي ساهم كثيرا في بعث مثل هذه الثقافة الشعبية و المثل الشعبي على وجه الخصوص و ذلك بفضل جهود من يقوم عليه من باحثين و مؤطرين و طلبة ، و لقد تجلى ذلك الجهد في العدد الهائل من مذكرات التخرج التي حملت بين دفتيها المثل الشعبي الجزائري و تناولته من جميع جوانبه السوسيولوجية و النفسية للفرد و الأمة الجزائرية. و ليس لهذه الجهود من غاية سوى الحفاظ على هذا التراث من الضياع و المساهمة في الحفاظ على ذاكرة الأمة و تاريخها و مجدها ، و معلوم أن الاستعمار حاول كثيرا اغتيال الكثير من الأشياء لكنه لم يستطع اغتيال الثقافة الشعبية الجزائرية ، " و لعل الأمثال الشعبية الجزائرية و القصص الشعبي عُدّت من حصون المقاومة التي احتمت بها الروح الجزائرية أمام اللهب الدخيل الذي كان يريد إحراقها فثقافتنا الشعبية – و المثل الشعبي جزء منها – << اختَزَنَت مثلنا العليا و بطولتنا و خصائصنا و كرم طباعنا و جوهر أصالتنا و انْتَصَبت في أذهاننا ... تحفز عزائمنا ... لقد كانت غذاء أطفالنا الصغار و كانت الخيط الذي ربطهم بالجزائر فمن طريق الأغنية الشعبية و القصة الشعبية و المثل الشعبي عن طريق هذه الثلاثة كانت تنسرب أرواحنا العربية الإسلامية تدافع الأحداث و تدفعها عنا ، و تشق في ظلمة الليل ملامح الطريق الطويل إلى أفق الفجر . كانت هي التي تحاول أن تضيء كالشموع طريق النفس الجزائرية إلى بعض مظاهر أصالتها الأولى >>[21] .

تلك إذن حال الأمثال الشعبية الجزائرية التي ببقائها بقاء حياة أمة و بقاء تاريخ شعب، و بتدوينها و البحث فيها نوفر لها الاستمرارية و الثبات.

ثانيا- أسباب دراسة واهتمام المستشرقين بالأمثال الشعبية :

يمكن أن نوجز أسباب دراسة المستشرقين للأمثال الشعبية فيما يلي:

-الأمثال هي المرآة العاكسة للنشاط الإنساني في مجالاته المتعددة لأي مجتمع في كل زمان ومكان فهي واحدة من أهم وأوثق السجلات المعرفية التي يمكن الاستناد إليها في استقاء المعلومات عن التكوينات الكامنة في مجتمع من المجتمعات والتي يصعب في أحيان كثيرة رصدها عبر سائر المصادر المعرفية المباشرة من كتابات سياسية واجتماعية وفلسفية وماشاكلها.

-إن أي أدب يرصد العمليات الاجتماعية التي تصاحب التغير الاجتماعي ويلقي الأضواء عليها وعلى مساراتهاالمتعددة بصورة أكثر بروزا ووضوحا وحيوية من كثير من البحوث العلمية وما إن يهتم الباحثون العلميونبتحليل مضمون هذه الأمثال حتى يضعوا أيديهم على مفاتيح التغير الاجتماعي في المجتمع وآثاره ففي الأمثال إشارات على كيفية تفكير الشعوب و ماهية ثقافته و مكنون ميولاته و سر اهتماماته.

-التركيب اللغوي البسيط للمثل الشعبي جعله مدخلاً لتعريف المستشرقين باللهجة العامية وفهمهم لها، ففهم لسان الشعب والتحدث به أساس للتعامل مع الشعوب ومعرفتها حق المعرفة، وذلك يفسر اهتمامهم بدراسة اللهجات العامية .

-إن الأمثال الشعبية تعكس مزيجاً من العادات والتقاليد والطقوس والمأثورات الشعبية كالملابس والمقتنيات التي تختص بكل بيئة محددة فهي تشكل معيناً للباحثين في دراسات الشعوب والدراسات الأنثولوجية، إضافة إلى تضمنها لقيم أخلاقية معينة عند كل شعب من الشعوب وهذا ما يجعلها تكتسب أهمية كبيرة في الدراسات الاجتماعية.

-فيالأمثال دلالات على الحالة النفسية التي يعيشها مجتمع من المجتمعات في مرحلة تاريخية معينة فالأمثال خير وسيلة تلقائية تعبر بها المجتمعات عن ذاتها بكل حرية و من دون أي قيد، إنها التعبير الفطري الصادق عن آمال الأفراد و آلامهم، هذا ما جعلها تكتسي طابعا ذا أهمية بالغة في معرفة نفسية الشعوب.

-الأمثال من أكثر الطرق التي يستخدمها الشعب للتعبير عن وجهة نظره نحو أحواله الاجتماعية؛ السياسية والاقتصادية فكثير من الأقوال التي ذهبت أمثالاً لا يعرف قائلها رغم ما فيها من السخرية اللاذعة والحكمة الرادعةللسلطات أو الحكومات.

هذه الأسباب و غيرها جعلت المثل الشعبي مفتاحاً بيد المستشرقين لفهم الآخرين وسبر أغوار المجتمعات الشرقية ومعرفة مظاهر حياتها فمكنهم هذا الاهتمام بالثقافات الشعبية من دراسة أحوال الشعوب ومعرفة طرق التأثير فيها.[22]

و مما سبق ذكره تتجلى لنا بوضوح المرامي و الأغراض من الدراسات الاستشراقية خاصة الفرنسية منها للثقافة الشعبية الجزائرية عامة و الأمثال خاصة ؛ و إنه لمن البديهي أن تعنى دراستهم بالأمثال لأنها وسيلة من وسائل الاستكشاف و التعرف على المجتمع الجزائري بعد أن سجلوها مباشرة ليدونوها و يدرسونها و من ثم يكشفون الحجاب و الغموض، فقد كانت دراساتهم محاولة منهم إلى التوصل إلى معرفة كل ما تمتاز به الجزائر أرضا؛ شعبا و ثقافة؛ فتسهل سيطرتهم على البلاد و العباد، و أسماء أولئك المستشرقين الذين احتكوا بالمجتمع الجزائري مدونة في المجلة الإفريقية .

الإحالات والمصادر والمراجع

[1]أبو هلال العسكري، كتاب جمهرة الأمثال، حققه و علق حواشيه و وضع فهارسه محمد أبو الفضل إبراهيم و عبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت – لبنان، ط.2، د.ت، ج1، ص15.

[2]لميداني، مجمع الأمثال، تحقيق د. جان عبد الله توما، دار صادر، بيروت – لبنان، ط1، سنة 1422هـ- 2002م، ج1، مقدمة.

[3]ابن عبد ربه الأندلسي، كتاب العقد الفريد، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، ط.2، د.ت، ج3، ص63.

[4]أحمد أمين، قاموس العادات و التقليد و التعابير المصرية،، لجنة التأليف و الترجمة، القاهرة،سنة 1953م، ج1، ص61.

[5]الأمثال الشعبية الجزائرية، ترجمة د. عبد الرحمن حاج صالح، ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر، سنة1987م، ص5.

[6]موسوعة الأمثال الشعبية، دار الحضارة، الجزائر، سنة 1997م، ص5.

[7]نشير هنا إلى العناية التي وجهه معهد الثقافة الشعبيةبتلمسان عبر أساتذته خاصة في شعبة الأدب الشعبي حيث أنجز العديد من مذكرات الماجستير وأطاريح الدكتوراه حول مناطق كثيرة من الجزائر من حيث جمع ودراسة أمثالها الشعبية.

[8]ينظر:عبد الحميد بورايو بن الطاهر، القصص الشعبي في منطقة بسكرة(دراسة ميدانية)، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، سنة 1986م،ص29.

[9]نفسه: ص30 و ما بعدها.

[10]قاموس العادات و التقاليد و التعابير المصرية ..، ص 61.

[11]أحمد رشدي صالح: فن الأدب الشعبي ، ج 2 ، منشورات دار الكتب: القاهرة، د.ط، ص 6.

[12]أحمد سيد محمد: "البحث عن الشخصية من خلال الأمثال الشعبية"، مجلة الثقافة (الجزائرية)، العدد65 ، سبتمبر 1981 ، ص 52.

[13]خالد عمر:" الأمثال العامية في الجزائر "، مجلة الثقافة (الجزائرية)، العدد 2 ، ماي 1971.

[14]نفسه: ص 87. وص89.

[15]"البحث عن الشخصية من خلال الأمثال الشعبية"..، ص 57.

[16]ينظر: عبد الحميد بورايو: الأدب الشعبي الجزائري، منشورات دار الاختلاف، ط 02، ص .78

[17]Charles Pellat : Langue et Littérature Arabe , Armand Colin , Paris V ; 1970 pp 50/55.

[18]Ibid.

[19]الأمثال العامية في الجزائر "..، ص 96.

[20]Charles Pellat :op,cit ,p 56.

[21]Ibid, p 62.

[22]ينظر: مازن مطبقاني، الحياة الاجتماعية في المغرب العربي بين الاستعمار و الاستشراق، مقال بمجلة المنهل _ جدة، عدد 471، رمضان/شوال1409 هـ ، ص.ص362.352. و محمد خليفة حسن، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، القاهرة، الدراسات و البحوث الاجتماعية، القاهرة، سنة 1997م، ص64 .